كتابٌ انزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر اولو الالباب ۞

فقه القران

(الفه وجمعه)

طالب رتب رتوب الكعب فى محافل الاعلام الساده. وثبت ثبوت القطب على السماء فى صفوف الاستفاده. وسار فى الافاق واحل علماءها منه محل الافاده. وجعل اندية العلوم محطا لرحاله ومناخا للوفاده. ولا يزال يختلف على ابواب المدارس يبتغى من فضل الله الزياده. ثم شمر ذيل العزم عن ساق الحزم فى ابداء المقصد المحمود. طامعا ان يكون قد اتيح له انه من خدم الكتاب الكريم معدود. فنشره خالصا لوجه الله راجيا ان يكون «فقه القران» مقبولا فى جدول دروس المدارس. وان ينتفع به كل طالب له نية حسنة ونصيحة شاملة وعزم ماض ودين خالص. والله اسأل ان ينفعنى به وكل من رام الانتفاع به من اخوانى. وان يجعله من الاعمال التى لا ينقطع عنى نفعها بعد ان ادرج فى اكفانى. وقد تقرب الى الله جل جلاله بشرح الطيبة والعقيلة والبناظمه. لتكون علوم القران فى مدارس الاسلام زاهرة مزهرة دائمه.

١٣٣٣ من السنة الهجريه. ١٩١٥ م.

موسى جارالله.

ПЕТРОГРАДЪ
Типографія М-А. МАКСУТОВА, Серпуховская, 2.
1915

سورة الفاتحه.

§ ١) هى اول سورة نزلت تامة. وهى السبع المثانى والقران العظيم. وهى ام الكتاب، نسبتها الى القران الكريم نسبة النواة الى الشجرة من حيث كونها مادة حياة لها تحتوى على جميع اصولها وعناصرها الاوليه. جعلت فاتحة الكتاب لانها نزلت منبئة عن المطالب التى سينزل القران يفصلها تفصيلا، جامعة كل اصل سيبينه القران بيانا جزيلا.

ومطالب القران الكريم امور: ١) التوحيد الخالص والايمان بالله واسمائه الحسنى الالاهيه. ٢) تعريف السلوك على الصراط المستقيم فى الحياة الانسانيه. ومنه بيان الحلال والحرام، وكل الاحكام الاجتماعيه. ٣) تعريف الحال فى المعاد والنشأة الابديه. وهذه الثلاثة هى السوابق والاصول المهمه. ٤) تعريف من آمن بالله واجاب دعوته واستقام على الطريق القويم، والصراط المستقيم. وذلك قصص الانبياء والاولياء واهل الايمان والصلاح. فقد ذكرهم واثنى عليهم عظيم الثناء. وسره والمقصود منه الترغيب. ٥) حكاية احوال الناكبين ومن علا فى الارض فسادا من الطاغين. وذلك قصص القرون الاولى والامم الخاليه. وسره والمقصود منه الترهيب والانذار

بسوء العاقبه. ٦) التعريف بطرق تعليم اهل الطلب، وطرق ارشاد اهل الزيغ بعد حكاية اقوالهم الزائغه. وسره والمقصود منه نشر الدعوة القرانية واعلاء الكلمة الاسلاميه. وهذه الثلاثة هى التوابع المتممه.

وفاتحة الكتاب قد اشتملت على كل هذه المطالب الغاليه اشتمالا حسنا واجملتها اجمالا جميلا.

والسنة الالاهية فى هذا الكون سواء كان كون ايجاد او كون تشريع ان يظهر الامر مجملا، ثم يتبعه التفصيل بعد ذلك تدريجا على حسب ما توجبه العناية الازلية، وتطلبه الحاجه الانسانيه. ونسبة كل سور القران الى فاتحة الكتاب نسبة تفصيل وايضاح لاجمال الخطاب. فلذا نزلت فاتحة الكتاب اولا؛ ثم تواترت الايات والسور تفصيلا مكملا.

§ ٢) بسم الله الرحمن الرحيم: آية مستقلة تامة منفردة لانها ثبتت فى جميع المصاحف الاسلامية اول كل سورة. جعلت علامة فاصلة بين السور، يعلم بها خاتمة سورة وفاتحة اخرى. واختيرت من بين الكلمات الالهيه فاصلة لانها كلمة استفتاح وكلمة بركة وتيمن وكلمة استعانة بالله وتوسل برحمته. رسمت فى جميع المصاحف اول كل سورة ونقلها الامة كافة بالتواتر كسائر الايات القرانيه. فهى آية كاملة قطعا.

وكان النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم يجهر بها فى مكة. ولما هاجر الى المدينة ترك الجهر بها الى ان توفاه الله. ولائمة القران فى البسملة اختلاف، اختلاف قراءة لا اختلاف مذهب واعتقاد. فالكل فى ابتداء السورة يبسمل. اما بين السورتين فورش وعاصم وابن كثير وابو جعفر المدنى والكسائى يبسملون. وحمزة يصل بين السورتين ولا يبسمل. وخلف لا يبسمل وله السكت والوصل. اما ابن عامر وابن العلاء، ويعقوب وقالون فلهم هذه الوجوه الثلاثة: ١) البسملة، ٢) الوصل، ٣) السكت.

واختلاف الائمة فى البسملة عند الوصل يدل دلالة قطع على انها ليست جزا من سورة. والا لما تركها عند الوصل احد، ولما ترك النبى صلى الله عليه وسلم الجهر بها فى المدينه.

ومن الادلة القاطعة على ان البسملة ليست جزا ان الايمة الذين عدوا آيات السور لم يعدوها منها فى سورة اصلا لا فى الاتفاق ولا عند

الاختلاف. ولم يقع ما يشبه الاختلاف الا فى سورة الفاتحه. وذلك ان الائمة كافة قد اتفقت على البسملة عند تلاوة الفاتحة مبتدأة كانت او موصولة بسورة اخرى تليت قبلها او كانت مكررة قرئت مرة ثانيه لان الفاتحة نزلت اول ما نزل وافتتح بها كتاب الله ونزلت معها البسملة ورسمت فى جميع المصاحف فكانت الفاتحة مبتدأة حكما فى كل احوالها عند وصلها وعند اعادتها. واتفقت ائمة العد على ان الفاتحة سبع آيات. فالعد المدنى والشامى والبصرى اعتبر «صراط الذين انعمت عليهم» آية سادسة؛ واعتبر «غير المغضوب عليهم ولا الضالين» آية سابعه. فالبسملة على هذا العد آية مستقلة منفردة. والعد المكى والكوفي جعل هاتين الايتين آية واحدة سابعة، وجعل البسملة آية اولى من الفاتحه.

وهذا اختلاف لا يتعلق بالتلاوة ولا بكون البسملة قرانا او غير قران. وانما هو اختلاف اعتبار. ولكل وجه واختيار. فان الشارع كان يجهر بها مدة ثم ترك فى المدينة الى ان مات.

وحيث ثبت من الشارع هذا وهذا وثبت ان ما اخذ به كل امام وجه ثابت وان اختلاف الائمة اختلاف توجيه لا اختلاف نفى واثبات تبين ان تفريع شىء من الاحكام المذهبيه على مثل هذا الاختلاف غير مطلوب وغير معقول.

قال القاضى ابو بكر فى كتابه احكام القران «وفائدة الخلاف فى ذلك الذى يتعلق بالاحكام ان قراءة الفاتحة ركن فى الصلاة عند المالكية والشافعية خلافا لابى حنيفة. فتدخل البسملة في الاختلاف».

وهذا التفريع عندى غير موجه وغير مطلوب.

البسملة انزلت فى اول القران مقصودة ثم كانت تنزل فى اول كل سورة تبعا لها، والمقصود ان يكون ابتداء كل سورة بذكر اسم الله. فلم تك منها. ولهذا افردت فى التلاوة والكتابة. اما التلاوة فكان النبى صلى الله عليه وسلم يقرأها سرا ولا يجهر بها. فلا تخرج من القران وتهجر، ولا تشبه بالقران المقصود فتجهر. اما الكتابة فقد كتبت فى المصاحف بين كل سورتين مفردة بحيث تكون اقرب لما بعدها فتكون تبعا لها لا لما قبلها. وكتبت قبل فاتحة الكتاب فى اول القران متصلة بها. فاحتمل ان

تكون منها واحتمل ان لا تكون منها. بكل اخذ جماعة. والكل حق. يؤيد الثاني حديث قسمة الصلاة بين الله وبين عبده. لان الفاتحة سبع آيات بالاجماع ولم تذكر في هذا الحديث البسملة. بل ذكر ثلاث آيات اولها ثناء، وثلاث آيات اولها دعاء، والرابعة متوسطة «اياك نعبد واياك نستعين.»

هذا هو القول الفصل في مسئلة البسملة. وهو تأويل ما نقل في كتب الفقه عن الفقهاء وفي كتب التفاسير عن الائمة. ولا لوم في هذه المسئلة الا على من حكى الاختلاف فيها وصوره في انها قران او ليست بقران. وشأن كل امام مذهب عندنا اجل من ان يمس شرف اجتهاده وكمال علمه تبعة كل فرع يفرعه على قوله مقلده او راوي مذهبه.

§ ٣) كتاب الله امامنا وقدوتنا. فافتتاحه بهذه الكلمة المباركة ارشاد لنا ان نفتتح بها كل اعمالنا. وهذه الكلمة المؤلفة من هذه الاسماء الاربعة كلمة اسلامية وسنة اسلامية مطلوبة بعينها. فيها معنى التبري عن حظوظ النفس، ومعنى استمداد القوة والعناية من رحمة الله واحسانه، وفيها معنى الاعتماد على مشيئة الله واذنه وتوقيعه وسلطانه.

§ ٤) معنى بسم الله الرحمن الرحيم في فاتحة الكتاب ان جميع ما يفصل في القران الكريم من الاحكام والايات وغيرها هو لله ومن الله، ليس لاحد غير الله فيه شيء. وهذا المعنى من اهم المقاصد وهو اصل الرسالة الاسلامية.

§ ٥) التسمية بمعنى ذكر اسم الله عند ابتداء العمل سنة دينية. وافعال الانسان بالنسبة اليها ثلاثة اقسام: ١) قسم شرعت فيه التسمية. منه الوضوء والاغتسال ومنه تلاوة القران. ومنه كل عمل مباح ليس بعبادة كالاكل والشرب والقراءة والكتابة. ٢) قسم لم تشرع فيه التسمية. منه الصلاة والاذان والاذكار والدعاء والحج والعمرة لان القربات بركة في نفسها. وتحرير ضابط لكل قسم من هذين عسير. فان تلاوة القران قربة عظيمة وبركة شاملة شرعت فيه البسملة. والصلاة وهي اعظم قربة واكبر بركة لم تشرع فيها البسملة. ٣) قسم كرهت فيه التسمية كالمحرمات ودنايا الافعال لان الغرض من التسمية حصول البركة في الفعل. والحرام وامثاله لا يراد تكثيرها ولان التسمية فيها معنى الاعتماد على اذن الله وتوقيعه. فهي في الحرام اساءة ادب وطغيان.

§ ٦) عبارة التسمية فى كل ما شرعت هى فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم» الا عند التذكيه. فقد قيل ان ذكر الرحمة عند ايلام الحيوان غير مناسب وان الادب فيها الاكتفاء باسم الله.

وسيأتى ان شاء الله ان التسمية فى ذكاة الاكل ادب فى وجوبه وعدمه خلاف. اما فى ذكاة النسك فاصل و ركن.

§ ٧) الحمد لله رب العالمين.

بدأ كتابه بالثناء على نفسه باظهر اسمائه وهو اهل للثناء عليه بجميع اسمائه الحسنى. والحمد والثناء حق له وحده استأثره بعزته له. واليه يرجع الامر كله. ولكن الانسان له حظ كامل من الثناء على كبير اعماله وله كفل كافل من الحمد على كماله. وذلك ان الله قد انعم على الانسان غاية الانعام حتى جعله مظهرا لاسمائه فنال خالص حق الله حتى كان مسجودا لملائكته. فينال خالص حق الله من الثناء والحمد ويكون محمودا بالسنة خليقته. ولذلك كان الثناء على الانسان بكبير اعماله والحمد عليه بنافع حسناته مشروعا، والسعى اليه والرغبة فيه مطلوبا. بل الثناء اجل ما يرغب فيه الانسان. والسعى وراء الثناء والمصالح شيمة كل انسان صالح. وليس الرغبة فى الثناء وكسب الفضائل من باب تزكية النفس التى نهى عنها القران الكريم بقوله «فلا تزكوا انفسكم هو اعلم بمن اتقى.» بل تزكية النفس تنافى الرغبة فى الثناء والفضائل. ولا يزكى نفسه الا من يرغب عن الثناء والكمال. ومن رغب فى الثناء ورغب فى عظيم الاعمال فلا يزكى نفسه ابدا. «ولكن الله يزكى من يشاء.» ومن له كبير همة وقوى عزيمة يسارع فى الخيرات ويسعى وراء الحسنات ويستوجب احق اجر له وهو الثناء عليه بما منه وبما له. والذكر الجميل اجل ما يرغب فيه العاقل، وقد رغب فيه الانبياء وكبار الاولياء. ورغبة الانسان فى الحياة طبيعيه. والذكر الجميل هو الممكن له من الحياة الابديه.

§ ٨) اختص نفسه فى اول آيات كتابه بالحمد على الالوهية والربوبية فدل على ان لا اله فى العالم الا الله وان لا خالق ولا رب الا هو. وتوحيد الله والايمان به اول اصول الدين الاسلامى واعلاها واهمها. ولذلك بدأ الكتاب به.

§ ٩) بدأ كتابه فى اول آياته بالحمد على جلال الالوهية وجمال الربوبية

وكمال الرحمة فافاد ان مقام الانسانية عند عرش الله هو الاجلال والشكر وتمام الرغبة. وهذا عندنا هو الذى هدى الانسان الى فكر الديانة والعبادة. فالدين والايمان سببه ما نشأ فى وجدان الانسان بمشاهدة جلال الله وعظمته فى الكون ومشاهدة كمال رحمته وعنايته فى الوجود من الاجلال والشكر. وقد ظن ناس ان الذى بعث بالانسان على فكر الديانة والعبادة هو الضرورة والخوف وان الانسان ما عبد من عبد الا خوف عقوبته وما تقرب الى احد الا اتقاء شره وعداوته. نعم، قد يكون هكذا ونحن لا ننكره ولا نلوم احدا ذهب اليه. وقد نطقت آيات كثيرة ان الخوف قد يضطر الانسان الى دعاء الله واخلاص الايمان وان الشدة والضرورة قد تردعه عن الغى والطغيان. نعم، هذا قد يكون. الا ان الدين القيم الذى فطر الله عليه الانسان هو روح الاجلال والشكر الذى نفخ فى الوجدان.

§ ١٠) قال رب العالمين فاستغرق وجمع جمع عاقل فافاد ان كل شىء فى هذا الكون له حياة وله ادراك وان كل حيوان له نطق وعقل. وهذا نظر اسلامى ايده آيات، وسيظهر هذا لاهل البحث فى الوجود والكائنات.

§ ١١) الرحمن الرحيم.

اعاد عين ما فى البسملة وذكر العالمين بينهما فافاد ان العالم بين رحمة متقدمة ورحمة متأخرة. فالعالم اوله من رحمة واوله الى رحمة. فكل وجود من جود الى جود. وافاد ان ما يبعث بالانسان الى العباده هو الرحمة الالاهية التى صدر منها وتهديه الى السعاده.

§ ١٢) مالك يوم الدين.

يوم الدين يوم الجزاء يلقى فيه كل عامل جزاء عمله، ويوم الوفاء ينال فيه الانسان غاية سعادته فان الانسان قد خلقه العناية الالهية للسعادة. ولم ينل الانسان خالص السعادة فى حياته الحاضرة. فلها يوم، يوم عظيم، يوم لا تملك نفس لنفس شيا والامر يومئذ لله. فافادت هذه الاية اثبات المعاد. وقد اجمع عليه جميع الامم.

§ ١٣) مالك بالالف عند عاصم ويعقوب والكسائى وخلف من الملك بكسر الميم. وهذه القراءة تفيد ان الملك يتعلق بالمعانى كتعلقه بالمنافع والاعيان.

§ ١٤) اياك نعبد واياك نستعين.

فصل الكناية وقدمها للحصر. فافاد وجوب اختصاص الاستعانة له كاختصاص العبادة به وحده. ولا يكون التوحيد الا به. وخالص التوحيد هو الذى يرفع شأن المعتقد ويخلصه عن الذل ويطلق الارادة ويحرر العزيمة فيكون المومن حرا خالصا وسيدا كريما لا يخضع الا لله. وهو معنى قوله «ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما.»

§ ١٥) العبادة خضوع بالغ حد النهاية، ناشىء من شعور القلب عزة الله وجلاله واعتقاده بسلطان له لا نهاية له. وهذا الشعور هو روح كل عبادة شرعت. ولم تشرع عبادة فى دين من الاديان فى اى صورة كانت الا لاحياء هذا الشعور فى قلبه. وله تأثير عظيم فى حياة الانسان وبركة قوية فى تقويم اخلاقه وتهذيب نفسه.

وللعبادة درجات: ١) عبادة رغبة فى ثوابه ورهبة من عقابه، ٢) عبادة تشرف وتقرب اليه، ٣) عبادة خالصة لوجه الله لاستحقاقه الذاتى. وهذه اعلى الدرجات. وكلها مقبولة فى نظر الشارع.

§ ١٦) كرر «اياك» تعليما لنا ان نجدد ذكره تعالى عند كل حاجة ولاختلاف جهة التوجه. فعند العبادة نتوجه اليه نفسه، وعند الاستعانة نتوجه اليه باسم من اسمائه، وسبب من اسبابه. فلاختلاف التعلق اعاد الكنايه.

§ ١٧) امرنا ان نخصه بالاستعانة وان نستعينه ولا نستعين غيره. وقد امرنا فى آيات اخر بالتعاون، فقال «وتعاونوا على البر والتقوى.» فما معنى اختصاص الاستعانة به؟

وبيانه ان كل عمل يعمله الانسان يتوقف هو وثمرته ونجاحه على حصول الاسباب التى اقتضت الحكمة الالهية ان تكون مؤدية اليه وعلى انتفاء الموانع التى من شأنها بمقتضى الحكمة ان تحول دونه. وقد مكن الله جل جلاله الانسان بما آتاه من العلم والقوة من دفع بعض الموانع ومن كسب بعض الاسباب؛ وحجب عنه البعض الاخر. فاوجب علينا ان نقوم بما فى استطاعتنا من ذلك ونبذل فى اتقان اعمالنا كل ما نستطيع من حول وقوة وان نتعاون ويساعد بعضنا بعضا على ذلك؛

واوجب علينا ان نفوض الامر فى ما وراء كسبنا الى القادر على كل شىء ونلجأ اليه وحده ونطلب المعونة المتممة للعمل والموصلة الى ثمرته منه وحده دون سواه اذ لا يقدر على ما وراء الاسباب التى اوتيها كل البشر الا الله. وهذا هو الاستعانة. وهى بهذا المعنى من تمام العبادة فانها بهذا المعنى فزع والتجاء من القلب الى الله وتعلق منه بالله. وهو روح العبادة. اما الاستعانة بالناس فى كل ما هو فى استطاعة الناس فانما هى ضرب من استعمال الاسباب المسنونة. واستعمال الاسباب فى كل عمل يحتاج اليها، واتخاذ الالات فى كل صناعة تحتاج اليها امر مطلوب واجب بحكم الطبيعة والشريعة. فالاستعانة لا تغنى عن التسبب بل توجبه. والتسبب لا ينافيها. بل الانسان وان استعمل كل الاسباب لا يستغنى عن الله.

فالشرع قد فرض على الانسان ان يستعين الله كما فرض عليه ان يستعمل الاسباب الطبيعية العاديه وان يتسبب بها؛ ونهاه ان يستعين غير الله كما نهاه ان يتوسل ويتسبب بغير الاسباب العاديه.

ثم ان الفرق بين معنى نستعينه وبين معنى نستعين به عظيم. والحصر فى هذه الاية انما جاء فى المعنى الاول لا فى المعنى الثانى. اما المعنى الثانى فقد جاء فى القران من غير حصر. مثل «يا ايها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة» ومثل «استعينوا بالله واصبروا.»

§ ١٨) امرنا ان نتخذه معينا ونصيرا فى كل اعمالنا. والعاقل لا يطلب الاعانة الا بعد ان يستفرغ تمام القوة بالاستقلال والا بعد ان يبذل غاية طاقته. فارشدنا الى ان نجتهد فى الاعمال النافعة واتقانها ما استطعنا. وهذا اساس السعادة فى الحياة الحاضرة ومرقاة السعادة فى الحياة الاتيه.

§ ١٩) اهدنا الصراط المستقيم.

ذكر طلب الهداية بيانا لاعلى درجات الاستعانه.

والهداية لها انواع: ١) هداية يشترك فيها كل حى وكل موجود. ذكرت فى قوله «ربنا الذى اعطى كل شىء خلقه ثم هدى.» وفى قوله «الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى». فكل موجود له هداية الهية تليق بشأنه. فاهتدى الارجل للمشى؛ والايدى للبطش والاعمال؛ واللسان

للكلام، والاذن للاستماع؛ والعين لكشف المرئيات؛ وكل الحواس والمشاعر وكل الاعضاء لما خلقت هى له. وهذه الهداية فى الحيوان هى الوجدان الطبيعى والالهام الفطرى. فالطفل ساعة يولد يشعر بالم الجوع فيصرخ طالبا للغذاء؛ وعند ما يصل الثدى الى فيه يلهم التقامه وامتصاصه. وما فى الحيوان من اهتداء حواسه ومشاعره قد يكون اكمل مما للانسان. فان الله قد من على الحيوان من الالهام والوجدان ما يستغنى به فى معاشه عن غيره.

٢) هداية العقل.

خلق الله الحيوان تاما مستوفيا جميع ما يمكن له من الكمال. فهيأ له ساعة يولد جميع ما يحتاج هواليه مدة حياته، وهداه الى جميع ما يصلح له، وعرفه وجه الانتفاع بما له فيه منفعة، ووجه الهرب مما له فيه ضرر. فمنحه من الحواس والالهام كل ما يكفيه فى معاشه ساعة يولد. اما الانسان فقد خلق مكتسبا مترقيا مراتب الكمال، وخلق مدنيا يعيش مجتمعا امة واحدة. فاقتضى العناية الالهية فى نظام المجتمع الانسانى ان يخلق الانسان ضعيفا فى اول نشأته يحتاج الى حضانة غيره سنين وان لا يتوفر له من الالهام والقوة والاستعداد ما يستغنى به عن غيره فى حياته، وان يمن عليه بهداية عالية هى اعلى من هداية الحواس والالهام وهى العقل الذى يتدارك به الحواس والمشاعر وينتظم به الاجتماع ويترقى به مراتب الكمال.

٣) هداية الدين. والانسان يحتاج اليها. فان العقل قد يخطىء كما تخطى الحواس. وقد يهمل الانسان استخدام حواسه وعقله فيما فيه سعادته الشخصية والنوعية والاجتماعية. ونظام الاجتماع قد يختل بسبب ان العقول تختلف والاهواء تتضارب. والاعتقاد بالله وبالحياة الباقية الابدية فطرى للانسان قد اودع فى غريزته. والعقل قد لا يستطيع ولا يهتدى الى معرفة ما يجب عليه لله وما فيه سعادته فى الحياة الابدية. فاحتاج الانسان الى هداية الدين. وهى اقسام:

٤) هداية البيان والتعريف والدلالة. مثل قوله «وهديناه النجدين.» ومثل قوله «وانك لتهدى الى صراط مستقيم.» وهذه الهداية لا تستلزم الاهتداء. منها قوله «واما ثمود فهديناهم. فاستحبوا العمى على الهدى.»

٥) هداية التوفيق. وهذه هى الهداية المستلزمة للاهتداء الموصلة. منها قوله «يضل من يشاء ويهدى من يشاء». وقوله «ان تحرص على هداهم فان الله لا يهدى من يضل». ومنها قوله «انك لا تهدى من احببت» ومنها قوله «اولئك الذين هدى الله. فبهداهم اقتده.»

٦) هداية المقصد وهداية الغاية. وهى غاية الهدايات السابقة، وثمرتها المطلوبة منها. منها قوله «ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بايمانهم تجرى من تحتهم الانهار فى جنات نعيم.» وقوله «الحمد لله الذى هدانا لهذا. ماكنا لنهتدى لولا ان هدانا الله.»

§ ٢٠) ثم ان الانسان لا يحصل له تمام الاهتداء الا بعد حصول امور هو يحتاج اليها: ١) علمه فى جميع ما يأتيه كونه محبوبا لله مرضيا له حتى يوثره، وفى جميع ما يذره كونه غير محبوب له حتى يجتنبه. فان نقص من العلم شىء نقص من الهداية بقدره. ٢) ان يكون مريدا جميع ما يحب الله ان يفعله عازما عليه وان يكون مريدا لترك جميع ما نهى الله عنه عازما على تركه مجملا ومفصلا. فان نقص من الارادة شىء نقص من الهداية بقدره. ٣) ان يكون قائما به فعلا وتركا على الكمال. فان نقص من فعله شىء نقص من الهداية بقدره. ٤) ان يهتدى الى التفصيل. فان الانسان قد يهتدى الى امور جملة ولا يهتدى الى تفاصيلها. ٥) ان يهتدى الى جميع الوجوه. فان الانسان قد يهتدى الى شىء من وجه دون وجه. فلا يكون اهتداؤه تاما. ٦) ان يهتدى الى الدوام عليه والاستمرار فيه والثبات. والانسان قد يهتدى الى شىء تفصيلا من جميع الوجوه ويبقى محتاجا الى الاستمرار. ٧) ان يتدارك امورا وقعت منه على غير جهة الاستقامة. وتداركها بالتوبة منها وتبديلها بغيرها. وهذا السابع يتعلق بالماضى. والستة السابقة بما يعزم عليه فعلا وتركا.

§ ٢١) الصراط المستقيم ما كان طريقا مسلوكا سهلا واسعا مستقيما موصلا الى المقصد، اذا سلكته وثبت عزمك عليه وصلت الى الغاية ـ غاية حياتك وكمال سعادتك وصلاح كل احوالك. فالصراط المستقيم بالنسبة الى كل انسان ما يوصله الى اصلح احواله فى ادب حياته؛ وبالنسبة الى كل الانسانية ما يجعلها على اعدل احوالها الاجتماعية واحسن هيئتها المدنية.

§ ٢٢) الهداية ترد فى الكلام على وجوه: ١) تتعدى بحرف يفيد معنى الانتهاء الى الغايه. والغاية هى الطريق او المقصد الذى يوصل اليه الطريق. وذلك اذا اريد بها معنى الايصال الى الغاية ومعنى الاتصال بها. مثل قوله «ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم» والغاية فى المثال الطريق. ومثل قوله «واهديك الى ربك» والغاية هى المقصد. ٢) تتعدى بحرف يفيد معنى الاختصاص والتعيين. فاذا قلت هديته له افاد معنى قولك هيأته له وجعلته له وادخرته. مثل قوله «وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا.» ٣) تتعدى بلا توسط حرف اذا اريد بها معنى يجمع معنى البيان والتعريف والالهام ومعنى التسيير فى الطريق والايصال الى المقصد. فاذا اريد بها المعنى الجامع لهذه المراتب كلها عديت بنفسها اذ لو عديت بحرف لتعين معناها وتخصص على حسب معنى الحرف.

§ ٢٣) ثم الهداية، لاشتمالها على معنى التعليم والتربية، تقتضى شيئين: ١) تعريفا وتعليما من الهادى المعلم. ٢) تعرفا وقبولا من المهدى المتعلم. ولا تتم الهداية ولا تثمر الا بهما. فمتى حصل البذل من الهادى ولم يكن فى المهدى قبول صح ان يقال «ان الله لا يهدى القوم الفاسقين» اعتبارا بعدم القبول. وصح ان يقال «واما ثمود فهديناهم» اعتبارا بالبذل. فالقبول من تمام الهداية.

§ ٢٤) اذا تبينت كل ما سردناه بالارقام الخمسة الاخيرة عرفت ان قولنا «اهدنا الصراط المستقيم.» اجمع دعوة واتمها ليس للانسان دعاء انفع له منها ولا هو الى شىء احوج منه اليها. وانه طلب اصل الهداية وفروعها لا دعاء تثبيت على ما حصل قبل وادامة عليه. وما كان هذه الدعوة اول دعاء فى القران الا لان حاجتنا اليه اشد من حاجتنا الى كل شى سواه.

والهداية فى الاية تشتمل اهتداء الانسان بعقله فى كل افكاره وآرائه، وباختياره فى جميع اعماله الى اصلح احواله وانفع آماله، وبحواسه فى حركاته وحاجاته، وتحتوى على اهتداء الانسانية الى اعدل حالاتها الاجتماعية. والانسان فى اهتدائه الى مقصد من مقاصده يحتاج الى علم وافر وارادة ثابتة وقدرة كافية، والى توفر اسباب وارتفاع موانع. وما يجهل الانسان من منافعه اضعاف اضعاف ما يعلمه وما لا يريده من رشده ويغفل عنه اكثر مما يريده

ويتنبه عليه. وهو فى اكثر احيانه عرضة للخطا والضلال، وعنده من اهوائه الغالبة وامياله الدافعة ما ينحرف به عن سبيل الحق وجهة المنافع ويورده موارد التهلكه، ويقيد عقله ويسترق اختياره.

فالطلب فى «اهدنا الصراط المستقيم» طلب اصل الهداية وتفاصيلها علما وعملا واهتداء اليها وثباتا عليها. والانسان فى جميع انفاسه يحتاج الى الهداية فى جميع ما يأتيه ويذره اصلا وتفصيلا.

فدعاء الفاتحة انفع دعوة جامعة بالغة. ولذا جعل ركنا فى كل ركعة من كل صلاة مكتوبة ونافلة. والمطلوب ان يتلوها تلاوة طلب وافتقار وتلاوة مستعين. وذلك هو الذى يجيبه الحق اذا سأله. ولا يكون الانسان مقيما للصلاة الا اذا تلا الفاتحة تلاوة ثناء وتلاوة استعانة ودعاء. «واقم الصلاة ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر.»

§ ٢٥) روى الائمة عن ابى هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قال الله عز و جل قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين. ولعبدى ما سأل. فاذا قال العبد الحمد لله رب العالمين قال الله حمدنى عبدى. واذا قال الرحمن الرحيم قال الله اثنى على عبدى. فاذا قال مالك يوم الدين قال مجدنى عبدى. واذا قال اياك نعبد واياك نستعين قال هذا بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل. فاذا قال اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين قال هذا لعبدى ولعبدى ما سأل.

§ ٢٦) قسم الصلاة بينه وبين عبده، ولم يذكر فى بيان قسمتها الا الفاتحة فهى ركن الصلاة وروحها اذا تليت تلاوة ثناء ودعاء. ومن واجب الادب ان يتأهب المصلى لمناجاة ربه ويجعله نصب عينيه فى قبلته. فاذا قال المصلى الحمد لله رب العالمين ينبغى له ان يلقى السمع ويقف ادبا مع الحق حتى يقول الله حمدنى عبدى. وهكذا فى كل آية منها. فانه من حسن الادب ترك الكلام والاصغاء لما يرد عليك من تناجيه، واذا شاركته فى الكلام فقد اسأت الادب.

§ ٢٧) صراط الذين انعمت عليهم.

من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين من الامم السالفة. اجمل

فى الفاتحة ما فصله فى القران الكريم توجيها للابصار الى الاعتبار باحوال الامم وحسن الاقتداء باخيارها فى ماكان سبب السعادة والتمكن فى الارض.

اضاف الصراط الى الاسم الموصول بالانعام فافادت الاضافة ثلاث فوائد: ١) بيان ان الانعام سببه هوالاهتداء الى الصراط المستقيم. فبه نال الانعام من انعم الله عليه. ٢) تطهير القلب عن ذل التقليد، واستشعار العلم بان من هدى الى هذا الصراط فقد انعم الله عليه. فالسائل بسواله الهداية اليه مستشعر طلب الانعام من الله عليه. ٣) بيان ان المطلوب هو الهداية الى جميع تفاصيل الطرق التى سلكها كل من انعم الله عليه من الانبياء والشهداء والاولياء والامم المتمدنه. وهذا اجل مطلوب لا يدع شيا من خير علمى واجتماعى ودينى.

§ ٢٨) امرنا ان نطلب الهداية الى الصراط المستقيم. ومنه الاسلام، او هو الاسلام. ثم قال ان الصراط المستقيم هو صراط من تقدم علينا من الامم السابقة. فافاد ان الاسلام هو الدين الذى اوحاه الله الى جميع انبيائه وجميع رسله، وان دين الله فى جميع الامم واحد، وان الاعتقاد بالله وانبيائه، والايمان بوجوب ترك الشرور ووجوب فعل الخيرات، والايمان بوجوب الاخذ بالاخلاق الفاضلة والاداب العالية مستو فى الجميع والا لما كانت الاستقامه طريقا لمن بذل الله عليه انعامه.

فالاسلام دين قد جمع من جميع الاديان ما حسن منها وكل ما يفيد فى تحسين نظام المجتمع الانسانى، وقد اتى باحكام وارشادات لم تكن فى شرائع سابقه، وبنى العقائد على براهين عقليه، والاحكام الادبية والعملية على قواعد المصالح والمنافع ودفع المضار.

«شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى اوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى.» (الشورى - ١١)

«قولوا آمنا بالله وما انزل الينا وما انزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وما اوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون.»

«انا ارسلناك بالحق بشيرا ونذيرا. وان من امة الا خلا فيها نذير.»

§ ٢٩) اثنى على من تقدمنا من الامم السالفة ممن سلك طريق الاستقامه،

وبذل الله عليه انعامه، ليرشدنا الى النظر فى ما كانت عليه والاعتبار بما صارت اليه لنقتدى بها فى القيام على اصول الخير.

§ ٣٠) الايمان بانبياء جميع الاديان السابقة، والثناء على كل من استقام فى طريق الحياة من الامم السالفة اصل من اصول الاسلام عظيم، واحسن وسيلة فى دعوة الناس الى القران الحكيم. وهو احسن سياسة فى اعلاء كلمة الاسلام، وبث التعاليم.

§ ٣١) ذكر الانعام واسنده الى فاعله، ولما ذكر الغضب بناه للمفعول ولم يذكر فاعله. وادب القران ان افعال الاحسان والرحمة والجود والعزة تسند الى الله عزوجل، اما افعال العدل والجزاء والعقاب فتحذف فواعلها وتبنى على بناء المجهول. تأدبا فى الخطاب. منه قول ابراهيم «الذى خلقنى فهو يهدينى. والذى هو يطعمنى ويسقينى. واذا مرضت فهو يشفينى.» ومنه قول الجن «وانا لا ندرى ا شر اريد بمن فى الارض. اما اراد بهم ربهم رشدا. وهذا الاسلوب ملتزم مطرد فى كل القران، سيأتى بيانه فى آيات. وادب البيان ونزاهة اللسان اصل مطلوب فى الاسلام.

§ ٣٢) الانعام بالهداية يستوجب الشكر. واول الشكر واصله هو الذكر. ولهذا ذكر الانعام واسنده الى الله. فهذا الاسناد تضمن الاصلين: ١) الشكر، ٢) الذكر. مثل قوله «فاذكرونى اذكركم واشكروا لى ولا تكفرون.»

§ ٣٣) غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

الناس بالنسبة الى الهداية ثلاث طوائف: ١) من عرف الحق واتبعه. فهذا هو الذى انعم الله عليه. ٢) من عرف الحق فاعرض عنه ونبذه وراء ظهره وآثر غيره. وهذا هو الذى غضب الله عليه. ٣) من جهل الحق وغفل عنه. وهذا هو الضال الذى تاه وتحير لوقوعه فى عماية لا يهتدى فيها الى الحق.

§ ٣٤) والضال على مراتب متفاوتة: ١) من لم تبلغه الدعوة او بلغته على وجه لا يسوق الى النظر، فلم يتوفر عنده من انواع الهداية سوى ما يحصل له بحواسه وعقله. وحرم رشد الدين ونعنى بالدين ما يفيض على اهله من روح الحياة ما به يسعد فى الدنيا والاخرة. ٢) من بلغه الدعوة فبعثته على النظر، فساق همته اليه واستفرغ جهده فيه وانقضى عمره وهو فى الطلب

ولكن لم يوفق الى الحق والاعتقاد بما دعى اليه. ٣) من بلغه الدعوة وآمن بها بدون نظر فى ادلتها ولا وقوف على اصولها ثم اتبع هواه فى فهم ما جاءت به فى اصول العقيده. وبهذا النوع من الضلال حدث الفتن المدهشة فى كل الاديان، وبه انفجر اكثر الفتن فى الاسلام. ٤) من آمن بالدعوة ثم ضل ضلالا فى الاعمال او تحريف الاحكام عما وضعت هى له. كالخطا فى فهم معنى الصلاة وكالغفلة عن روح العبادات وكالانحراف عن مقصد الشارع فى المعاملات.

§ ٣٥) اذا ضلت الامة عن سواء السبيل وطريق الحق، ولعب الباطل باهوائها ففسدت اخلاقها واعتلت اعمالها بانحلال اختيارها واختلال قوى ادراكها حقت عليها كلمة العذاب، ووقعت فى الشقاء لامحاله: يسلط الله عليها من يستعبدها ويستذلها ويستأثر بشوونها. عقوبة من الله عاجلة، لابد نازله. لا ينفع فيها ايمان ولاتوبه، ولا يكون فيها عفو من الله ولا يوخذ فديه، ولا يوخر لها العذاب الى يوم الحساب. «سنة الله التى قد خلت فى عباده». واذا تمادى بها الغى والفساد فى نظام الاجتماع وآداب الحياة وصل بها الى الهلاك وعفا اسمها من الوجود. «فهل ترى لهم من باقيه.»

ولم يوجد فى تاريخ الانسانية امة فسد نظامها الاجتماعى واختل ادبها الحيوى ثم نجت من عذاب الله «الا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم الى حين.»

وقصة قوم يونس شاذة فى سنة الله القاهرة، نادرة من جمهور قوانين الاجتماع نافره. ذكرها لنا القران عبرة تدعو عقولنا الى النظر فى وجوه نجاة امة فسد نظامها الاجتماعى واختل ادبها الحيوى. والقصة خطيرة لها شأن فى مسئلة انتباه الامة بعد رقودها وهبوطها الى الدرك الاسفل من الذل والمهانه. وسيأتى بيانها اذا حل وقته ان شاء الله.

§ ٣٦) هذا الذى بيناه من سنة الله فى ضلال الامة وعقابها بسببه. اما ضلال الفرد فلم تجر سنة الله بوجوب العقوبة لكل من ضل فى هذه الحياة الدنيا. فقد يطغى الانسان ويعيش عيشا رغدا ثم يدركه الموت قبل ان يذوق الما او يمسه بؤس وشدة. والفرد الضال فى حياته مدة قد يهتدى بعد. وله توبة مقبولة، وله عفو مبذول من الله. اما الامة، اذا ضلت،

فان عقوبتها عاجلة، وان كانت لتجد حسابها ونصيبها ايضا فى الاخره.

§ ٣٧) قدمنا معانى الهداية، وان الناس بالنسبة اليها ثلاث شيع، وان الهدى والسعادة والفلاح لا سبيل لنيلها الا بمعرفة الحق وارادته وايثاره على غيره، وقلنا ان الجهل يمنع الانسان من علم الحق ومن معرفة طريقه، وان الغى والعناد يمنعه عن ارادته وايثاره على غيره، وبينا معانى الضلال وتأثيره فى حياة الامة وعلى روح الفرد، وقلنا ان من غفل عن الحق وتاه عن طريقه هو الضال، وان من عرف الحق ونبذه وراء ظهره هو المغضوب عليه. اذا عرفت كل هذه اجمالا وتفصيلا اهتديت الى معنى «غير المغضوب عليهم ولا الضالين» وايقنت ان دعاء الفاتحة اجمع دعاء و اوجزه؛ وان الانسان احوج شىء الى ان يسأل الله فى كل انفاسه ان يهديه الى الصراط المستقيم والى طريق الحق تعريفا وبيانا وارشادا وتوفيقا واعانة بان يعلمه اولا ثم يجعله مريدا له قاصدا لاتباعه. حتى لا يكون ممن نبذ الحق وتركه على عمد وعلم فغضب الله عليه؛ ولا يكون ممن عدل عن الحق وتركه عن غفلة وخطأ فضل عن سواء السبيل ولم يهتد اليه عن جهل وقصور علم.

فالهداية لا توجد ولا يمكن ان توجد الا بالعلم وهو اهتداء العقل الى معرفة الحق و الا بصحة الارادة وحسن الاختيار، وهو اهتداء الارادة والاختيار الى الاخذ بالحق. فلها ركنان: ١) كمال العلم ٢) حسن الارادة.

§ ٣٨) قلنا ان المغضوب عليه هو كل من عرف الحق ثم نبذه وراء ظهره عمدا وعنادا. يهوديا كان او نصرانيا، مجوسيا كان او مسلما. وقلنا ان الضال هو كل من لم يهتد الى الحق وضل عن سواء السبيل بجهله وتحيره وغفلته. مسلما كان او مجوسيا، يهوديا كان او نصرانيا.

وظهر بما قلنا ان كل مغضوب عليه ضال؛ وليس كل من ضل عن سواء السبيل ودرك الحق مغضوبا عليه. فان الجهل قد يكون عذرا يلحقه عفو من الله، فيغفر له ويهديه ولا يغضب عليه.

§ ٣٩) وقد اشتهر تفسير من انعم الله عليه بالمسلم، وتفسير المغضوب عليه باليهودى، والضال بالنصرانى. فان صح فهو تفسير على طريق بيان

المعنى ببعض جزئياته. والوجه فيه ان اكثر ما ورد فى ذم اليهود غضب الله؛ وفى النصارى الضلال.

وقد ثبت عند اهل العلم ان الانسان له عقل وله احساس وله اختيار؛ وان هذه الثلاثة هى مبادى افكاره وكل اعماله. فمن جمع بين معرفة الحق لذاته وبين اختيار الخير للعمل به فهو المهتدى الذى انعم الله عليه. ويقابله من اخل باحدهما. فمن اخل بعقله واحساسه فجهل الحق وغفل عنه فهو جاهل ضال. ومن اخل باختياره فترك الحق والخير واختار الباطل والشر فهو مغضوب عليه.

§ ٤٠) الضلال وقوف تحير او سلوك طريق لا يوصل الى الخير. وله اسباب: ١) الغفلة مثل ايثار اللذات الحسية على اللذات العالية الروحانيه، ٢) الغرور مثل سكون النفس الى ما تهواه ولا خير فيه، ٣) الشبهة، مثل كون النقد خيرا من النسيئة. فيختار النقد العاجل القليل على النسيئة الكثيرة النافعه. ومن الشبهات ينشأ اكثر ضلال الناس. ٤) غلبة هوى على الانسان يضيق بـه صدره عن الخير وينشرح للباطل والشر. وغلبة الهوى اقوى سائق واشد دافع للانسان الى الشرور والباطل والمفاسد. فان استمر الهوى على قلب الانسان اورثه رينا ثم غشاوة، ثم طبعا، ثم ختما، ثم قفلا، ثم موت القلب.

§ ٤١) فالضلال: ١) ضلال عقل، سببه الجهل والغفلة والشبهة وغلبة هوى. ٢) ضلال اختيار وضلال ارادة. بان يختار الانسان الباطل والشر والمفسدة والضار. وله اسباب عديدة فان كان اختياره الباطل والشر بعد علمه الحق والخير عنادا واستكبارا فهو الذى غضب الله عليه. اما من اختار الباطل والشر عن جهل وغفلة او شبهة فالعزيز الحكيم لا يغضب عليه. ولذا قلنا ان كل مغضوب عليه ضال؛ وليس كل ضال مغضوبا عليه. والحكيم لا يغضب على الجاهل ولا على من قامت عنده شبهة حجبت عنه الحق.

§ ٤٢) ضلال الاختيار اغلظ، وتأثيره فى شقاء الفرد انفذ، وهو عن العذر والعفو ابعد. فالاهتمام بدفعه ورفعه، والتحذير منه احق واوجب. ولذا قدم المغضوب عليه فى الذكر على الضال.

§ ٤٣) قال غير المغضوب عليهم ولم يقل لا المغضوب عليهم ليكون الكلام خارجا مخرج النعت لا العطف. فان النعت هاهنا ابلغ، وافادته ازيد. فان العطف لا يفيد اكثر من نفى اضافة الصراط الى المغضوب عليهم. والنعت يفيد ما يفيده العطف، ويفيد الثناء على الموصوف بكونه غير مغضوب عليه. ويستفاد منه ان الانعام المطلق ينافى الغضب والضلال، فلا يثبت لمغضوب عليه ولا لضال.

§ ٤٤) زادلا فقال ولا الضالين ليفيد المغايرة بين النوعين وبين كل نوع بمفرده. ولو قال غير المغضوب عليهم والضالين لاوهم ان المراد ما غاير المجموع المركب لا ما غاير كل نوع بمفرده وليرفع احتمال كون الضالين وصف المغضوب عليهم فان العطف قد يدخل فى عطف الاوصاف بعضها على بعض. وتعاطف الاوصاف فى القران كثير. مثل «سبح اسم ربك الاعلى الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى.»

§ ٤٥) قال اهدنا الصراط المستقيم، ثم ابدل فقال صراط الذين انعمت عليهم. والبدل عند النحاة فى حكم تكرير العامل، والمبدل فى حكم التنحيه. وليس معنى هذا القول طرح المبدل من البين بالمرة. بل معناه ان النسبة الى المتبوع تمهيد وتوطئة للتابع. فان التابع يفيد التذكير والتوكيد ويفيد تقوية النسبة، ويفيد التفسير بعد الابهام. وهذا كما اذا دللت انسانا على طريق لا يعرفه واردت توكيد الدلالة، وتحريضه على لزومه وان لا يفارقه تقول له «هذا هو الطريق الموصل الى مقصودك» ثم تزيد ذلك عنده توكيدا وتقوية فتقول «هو الذى سلكه الناس واهل النجاة قبلك.» فان النفوس قد جبلت على التأسى والمتابعة. فاذا ذكر لها من تتأسى هى به فى سلوكها انست واقتحمتها.

§ ٤٦) جمع الضمائر فقال «اياك نعبد واياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم.» وكل ادعية القران الكريم جاء على هذا الاسلوب. مثل «ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الاخرة حسنة وقنا عذاب النار.» لان الفرد داخل فى الجمع، ولان اهتداء الانسانية الى اعدل احوالها الاجتماعية والى سعادتها الممكنة انفع للانسان من اهتدائه وحده. والانسان احوج الى اهتداء

الجمع منه الى اهتداء نفسه. فان الفرد لا يكون عزيزا اذا ذل قومه، ولا يكون سعيدا اذا شقى جمعه، ولا يكون مهتديا اذا ضل حزبه. ولان ضلال الامة وفساد نظامها الاجتماعى يوجب هلاكها ويوجب شقاء الفرد. فاهتداء الجمع وانتظام الاجتماع اصل فى اهتداء الفرد و سعادته. ولان المقام مقام ثناء وعبودية واستعانة فالجمع يتضمن من الثناء يسعة المجد وكثرة العبيد وعظمة الملك ما لا يتضمنه الافراد.

§ ٤٧) قدمنا فى الفقه الاول ان مطالب القران الكريم ستة وان فاتحة الكتاب قد اجملت كل هذه المطالب العالية اجمالا حسنا مفيدا على الايجاز. ثم ذكرنا فى تفسير آياتها السبع من بعض ما تفيده هذه الايات الكريمة ما يظهر به صدق قولنا. سميت فاتحة الكتاب لانها قد فتحت جميع مطالب الكتاب وجميع خزائنه. فهى ام القران، جمعت جميع ما فيه. وقد صح فى فضلها حديثان: ١) الحديث الذى قدمناه فى الفقه (٢٥) «قسمت الصلاة بينى وبين عبدى.» ٢) حديث ابى بن كعب «لاعلمنك سورة ما انزل فى التوراة ولا فى الانجيل ولا فى الفرقان مثلها.»

§ ٤٨) آمين ـ ليس من القران بالاجماع، ولم يكتب فى مصحف من المصاحف وهو كلمة دينية كانت فى الامم السابقة، وضعت موضع الدعاء اختصارا. وهى كلمة ذات بركة شاملة ولها فى قلب المومن اثر مبارك، يحسن فى مثلها التنافس. وهذا معنى ما روى عن ابن عباس انه قال «ما حسدكم اهل الكتاب على شىء ما حسدوكم على قولكم آمين.»

وهى كلمة فيها معنى الرجوع الى الله ودوام الافتقار اليه. وفيها معنى طلب الاجابة. فاذا خرجت من قلب مومن اشبع بمعانى الفاتحة فان الله يجيب ويستجيب.

سورة البقره .

§ ٤٩) سورة البقرة اعظم سورة فى القران، واكثرها جمعا لبراهين الدين وللاحكام . ولعظيم الفقه فيها ، اقام عبدالله بن عمر ثمان سنين يتعلمها.

سميت بها لانها اظهر حكاية واغرب قصة لم تذكر فى غيرها . وفى قصتها امور تدعو الباحث المتفكر الى النظر فيها والاهتداء بها اليها: ١) منها روح الامة فى آدابها الشخصية والاجتماعيه والدينيه . ٢) ومنها ان بين حوادث الطبيعة صلة وارتباطا يخفى على الناس فى امتداد العصور ، ثم يظهر ويهتدى اليه الانسان ببركة الصدفة ، او ببركة اعمال يعملها الانسان فى تجاربه . فان «حياة القتيل بعد ضربه ببعض بقرة عوان لا فارض ولا بكر ، لا ذلول تثير الارض ولا تسقى الحرث ، مسلمة لا شية فيها صفراء فاقع لونها تسر الناظرين» مثال قد آمنا بصدق حاكيه، يدل على ان حوادث الطبيعة اذا الفت تأليفا صناعيا ، او تألفت وترتبت ترتبا صدفيا تلد حوادث اخر طبيعية ، فى ظاهر ارتباطها غرابة ، يراها الناس خرق عادة . وسيأتى بعض ما فى القصه .

وقد صح عن ابن مسعود «هذا مقام الذى انزلت عليه سورة البقرة .» وثبت اسماء جميع السور فى الاحاديث والاثار . ولم يكتب اسم سورة فى مصحف من مصاحف الصحابة ولا فى المصاحف العثمانيه . قال الامام الدانى «والناس فى جميع الامصار من لدن التابعين الى وقتنا هذا على الترخص فى الشكل والنقط فى امهات المصاحف وغيرها ولا يرون بأسا برسم فواتح السور وعدد آياتها ، ورسم الخموس والعشور فى مواضعها.»

§ ٥٠) الف . لام . ميم .

بدأ القران تسعا وعشرين من سوره باسامى حروف التهجى الاربعة عشر . وهى آية تامة فى العد الكوفى . الا اذا كان فيها (را) مثل (الف لام ميم را) . والا اذا كان اسم حرف واحد ، مثل (قاف ، صاد ، نون) . والا (طاسين) اول سورة النمل . قال الامام الشاطبى فى كتاب له سماه «ناظمة الزهر» وقد شرحناها شرحا جليلا وجيزا :

«وما بدؤه حرف التهجى فاية لكوف . سوى ذى را وطاسين واوتر .»

وهذه الاسامى فى اوائل السور كتبت كلها فى كل المصاحف بصورة مسمياتها لا بصورة الاسامى. والتلاوة بالاسامى. وكلها عند الاجتماع كتبت متصلة. الا اول الشورى، فقد كتب حم منفصلا عن (عسق) فعدهما الكوفى لذلك آيتين.

ثم ان القران الكريم قد نطق وقال قولاً بليغا ان فيه آيات متشابهات لا يعلم تأويلها الا الله. وهذه المتشابهات هى اسامى الحروف فى اوائل السور فقط، او هذه الاسامى من المتشابهات التى لا يعلم تأويلها الا الله. ولا ثالث لهذين الاحتمالين. والاحتمال الاول عندى اوجه واقرب. لما سيأتى فى اول سورة آل عمران.

§ ٥١) اوّل جماعة من اهل العلم اسامى الحروف فى اوائل السور تأويلات لا يأتى بها فائدة يعتد بها فى البلاغة والجزالة والاعجاز، وكلها ناشئة من تخمين طفيف ليس له اساس. فقيل انها مفاتح الاسماء الالهية مشتقة من اولها او آخرها. وقيل انها اخذت من كلمات جملة اريد بها معناها مثل انا الله اعلم. وقيل انها اقسام اقسم الله بها. وقيل انها حروف حساب اريد بها اعمار امة وآجالها. وكل هذه تخمينات تركها افضل واهمالها.

§ ٥٢) قد اخترنا ان اسامى الحروف فى اوائل السور متشابهة. وقلنا ليس فى القران تشابه بالمعنى المعروف عند اهل الاصول الا فيها. وقال القران الكريم «وما يعلم تأويله الا الله.» فاذا لم يعلم تأويله احد، ولم يرد قائله به الافادة، فما الوجه فى نزوله فى كتاب نزل بلسان عربى مبين؟

ولعل الوجه فى نزول المتشابه الذى لم يقصد به الابانة فى القران الكريم ان عرش الوجود وعالم الكون فيه اشياء وحوادث وقوى ظاهرة لكل احد، وفيه قوانين وقوى لا تظهر الا لاهل العلم، وفيه كمالات وقوانين واسرار خفية لا يهتدى اليها الانسان الا بعد تواتر الدهور وتوالى العصور ببركة اجتهاد مجتهد وسعى مكتشف؛ وان فيه احوالا وكمالات لا ينالها الانسان بسعيه واهليته بل ببذل المنعم العزيز؛ واشياء وخفايا لا يهتدى اليها الانسان بعقله واجتهاده وتعلمه، بل بهداية الله وفتحه فقط. فان الجود الالهى وان بذل كل شىء لاهله وقابله الا ان جلال الله وعزته قد استأثر لنفسه اشياء لم يجعل لها سببا الا جوده،

ولم يجعل لنزولها بابا الا عزته. وما ينزل من باب العزة لا يناله الانسان لا باجتهاده وعقله ولا بتعمله وحيلته. ولو كان له سبب غير جوده، او باب غير باب عزته لم يتصف العزيز بالعزة.

فلارشاد عقل الانسان الى هذه الحقيقة البالغة انزل الله فى فواتح سور القران اسامى حروف لا يعلم ما اريد بها الا ببيان قائلها. فان بين فمعانيها سهلة، والا فلا سبيل لكشفها. وهذا فيه تأديب للانسان بليغ، وتعظيم لله عظيم.

ولهذا جعل التشابه فى اسامى حروف المبانى ولم يجعله فى جمل تدل على المعانى. فان معنى الجملة ان كان محجوبا عن العقل فاما لعجزه وقصوره واما لاشكال المعنى وخفائه. وليس فى هذا ما يليق بشأن الله وحكمته وعزته وجلاله. وفيه خرق لاصل عظيم من انزال الكلام للابانة والافاده. والخطاب بكلام لا يفهم معناه السامع مستبعد فى قانون البلاغة والجزالة.

§ ٥٣) ذكرنا ان جلال الله وعزته قد استأثر لنفسه اشياء. «وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو.» وان عالم الوجود فيه خفايا محجوبة بحجاب الجلال لا ينالها الانسان الا بالله وفتحه. «ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها. وما يمسك فلا مرسل له من بعده. وهو العزيز الحكيم.» ونريد الان ان نتوسع فى الكلام استطرادا وتخلصا من فائدة الى مثلها. فنقول قد اختلف اهل العلم فى مسئلة «هل النبوة مكتسبة؟» قالت الفلاسفة انها قد تكون كسبية، وقال اهل التصوف واهل الكلام انها لا تكون مكتسبة اصلا. وهذا هو الحق والصواب لان فيض النبوة والوحى لا ينزل الا من باب العزة، فلا يصل اليها الانسان بالتعمل، ولان المكتسب انما هو الوصول الى الباب. واما ما وراء الباب فليس من كسبه، ولا علم للواصل اليه هل يفتح الباب بين يديه.

§ ٥٤) اورد فى فواتح السور من اسامى الحروف العربية، وهى ثمانية وعشرون، اربعة عشر منها، نصفها سواء. فكان هذا للدلالة على ان خفايا الوجود، والاشياء التى استأثرها الله لعزته وجلاله لا تقل عن ظواهر عالم الوجود، وعن الاشياء التى بذلها للناس برحمته وجماله. وجعل حروف المبانى فى اوائل السور مختلفة الاعداد من واحد الى خمسة.

ولعل المناسبة ان اصول الابنية فى اللغة العربية حرف وحرفان الى خمسة . والمقام فيه سعة ، وللفكر فيها مجال .

§ ٥٥) ذلك الكتاب لا ريب فيه . هدى للمتقين .

ادب الكلام وروح تأثيره فى نفس السامع ان يكون جزلا فى بلاغته ، جميلا رائقا فى افادته ، حكيما شائقا فى دعوته يلقى الهيبة والخشوع فى زوع السامع ، والقناعة والميل والانجذاب فى قلبه . حتى يكون الكلام جزلا مفيدا مؤثرا . وقلب الانسان حاضرا قابلا واعيا متأثرا . فلهذا بدأ القران اعظم سوره ، سورة احكامه وتعاليمه بهذا الكلام الجزل المتين «ذلك الكتاب لا ريب فيه . هدى للمتقين .»

الريب شك فيه تهمة وسوء ظن . تتوهم بالشىء امرا ما ينكشف لك عما تتوهمه . والهدى والهداية والاهتداء معناها فى موضوع اللغة واحد . الا ان عرف القران الكريم قد خص الهدى بما تولاه الله واعطاه واختص هو به ، دون ما هو من الانسان واليه . مثل هدى للمتقين ، اولئك على هدى من ربهم ، فمن تبع هداى ، قل ان هدى الله هو الهدى . والاهتداء يختص بما يتحراه الانسان على طريق الاختيار من امور الدنيا والاخرة مثل «فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه .»

والقران هدى فى جميع مطالب الدين ، فى معرفة الله واسمائه ، وفى الايمان بالانبياء وشرائع الاجتماع وفى ادب العبد مع ربه .

والاتقاء افتعال من الوقاية . وهى حفظ الشىء عما يوذيه ويضره . وغلب التقوى فى عرف الشرع على حفظ النفس عما يوثم وعما يولم . وقد يسمى الخوف تقوى ، والتقوى خوفا . فالاتقاء ان تحفظ نفسك عما يوثمك ويولمك . او ان تتخذ الشىء وقاية يحول بينك وبين ما يوثمك ويولمك .

فالمتقى من اتخذ الله وكيلا يهديه الى الخيرات والحسنات واتخذه وقاية يحول بينه وبين الشرور والسيئات . فالقران يكون هدى له فى جميع مطالب حياته العاجلة والاجلة ، ويكون هدى له الى جميع حاجاته الحاضرة والباقيه .

§ ٥٦) الذين يومنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون .

ذكر فى الاية السابقة ان ذلك الكتاب هدى للمتقين ، فذكر فى

هذه الاية ثلاثة ارکان یکون بها کمال الهدی وکمال الاتقاء: ١) صدق الاعتقاد، وخلوص الایمان، ٢) صلاح الاعمال، والاستقامة علی الاعتدال، ٣) کمال الاخلاق العالیه، وهی اول اساس للاعمال النافعه.

وهذه الارکان الثلاثة هی الاصول التی ینبنی علیها سعادة الحیاة الانسانیة وانتظام الهیئة المدنیه.

§ ٥٧) اما صدق الایمان وخلوص الاعتقاد فهو روح کل عمل. ومن لا ایمان له ثابت فلا عمل له نافع. ولا یکون فی عمل الانسان اقدام و دوام و بساله، ان لم یکن فی قلبه ایمان بان معتقده حق و ان امله واقع لا محاله.

§ ٥٨) وجملة «یومنون بالغیب» من حیث کونها جملة عربیة مؤلفة من کلمات ذات معان مختلفة تحتمل وجوها متعددة. والکلام اذا احتمل وجوها فالاکثر ان الواحد منها یتعین بحکم المساق وبقرینة من قرائن المقام. وقد لا یوجد قرینة تعین احد الوجوه، فان کان الکلام کلام انسان فالغالب ان القائل لم یرد به الا وجها من الوجوه علی حسب قصده، وان السامع لا یفهم منه الا وجها من الوجوه علی حسب ما یحضر عنده من العلم. فقد یطابق وجه السامع قصد القائل فیصیب؛ وقد یخالف فیخطی. هذا هو الغالب فی کلام الانسان فان الغفلة علی طبعه غالبه. اما اذا کان الکلام کلام الله، واحتمل وجهین او وجوها کثیرة علی حسب وضع اللغة ولم یوجد قرینة تعین احد الوجوه فکل وجوهه وجمیع معانیه لا بد ان تکون مقصودة. لان الغفلة علی قائله ممتنعه. وعلمه محیط بجمیع الوجوه والجهل ممتنع. وقد انزل هذا الکلام وعلم ان عباده متفاوتون فی النظر فیه والفهم منه. ولم یجعل فی کلامه حین انزله ما یعین احد الوجوه، ولم یکلف احدا الا وسعه. فکل من فهم وجها فقد اصاب. ومن هدی الی جمیع الوجوه فقد اوتی الحکمة وفصل الخطاب. هذا هو دیننا فی کلمات القران الکریم، وهذا هو مذهبنا فی فقه الاسلوب الحکیم.

والباء فی بالغیب یحتمل الظرفیة. فمعنی الکلام یومنون حال الغیب وحال الحضور. لا کالمنافقین «اذا لقوا الذین آمنوا قالوا آمنا. واذا خلوا الی شیاطینهم قالوا انا معکم. انما نحن مستهزؤن.» ونظیره قول یوسف «ذلک لیعلم انی لم اخنه بالغیب.» ـ فالغیب علی هذا الوجه

يقابل الحضور. منه قوله «الذين يخشون ربهم بالغيب.» و قوله «وخشى الرحمن بالغيب.»

و يحتمل ان يكون كالباء فى قولك كتبت بالقلم. فمعناه يومنون بقلوبهم الغائبة عن الناس. ـ لا «من الذين قالوا آمنا بافواههم ولم تومن قلوبهم.»

و يحتمل ان يكون الباء صلة توصل معنى الفعل الى متعلقه. فالغيب على هذا كل ما غاب عن العيون والحواس وكان معناه محصلا فى القلوب. والانسان لا ينال الغيب بهذا المعنى الا اذا قوى قلبه واتسع مجال افكاره، ولم يكن قلبه و عقله محصورا فى دوائر الحواس، بل يكون له عقل يرفع له ستور الاستقبال، و قلب يجد من وراءها ريح الامال.

وكل هذه المعانى يدل عليها تركيب الجملة على حسب وضع اللغة. وكلها قوية صحيحة مقصودة.

§ ٥٩) و الغيب بهذا المعنى له درجات: ١) ما غاب عن العيون وكان معناه محصلا فى القلوب، وله دليل عقل او برهان وجدان يهتدى به الانسان اليه. وغالب الحقائق الغائبة التى نالها الانسان و ينالها من هذا النوع. ٢) ما غاب عن الحواس وله معنى محصل فى القلوب، لم يصل اليه الانسان الا ببركة الخبر دون النظر. منه بعض تفاصيل ما يجعل ركنا فى الايمان الدينى. ٣) ما غاب عن الحواس وغاب عن العقل فلم ينصب له دليل ولم يجعل لدركه من سبيل بل استأثره الله لنفسه. وهذا نوعان. نوع يظهر على من ارتضى من عباده. منه قوله «عالم الغيب فلا يظهر على غيبه احدا. الا من ارتضى من رسول.» ٤) نوع لا يطلع احدا ولا يظهره عليه. منه قوله «وعند مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو.»

§ ٦٠) ذكر صدق الايمان وخلوصه و ذكر بعده اقامة الصلاة. وهى اداؤها بتعديل اركانها و آدابها، والمحافظة عليها فى اوقاتها، وان يكون القلب حيا بروح العبادة، حتى تكون صلاته تنهاه عن الفحش والمنكر؛ فيكون صلاح الاعمال والاستقامة على الاعتدال له ملكة.

§ ٦١) والصلاة اصلها وروحها هو توجه المخلوق بقلبه و وجوده الى خالقه الكريم. منه قوله جل جلاله «الم تر ان الله يسبح له من فى

السماوات والارض والطير صافات. كل قد علم صلاته وتسبيحه.»
وهى من العبادات التى لم تنفك امة ولا شريعة منها، وان اختلفت صورها وهيئتها على حسب اختلاف احوال الامم واختلاف الشرائع. ولذلك قال جل جلاله «ان الصلاة كانت على المومنين كتابا موقوتا.»

§ ٦٢) والصلاة معناها معلوم لا اجمال فيها. كانت فى اول الإسلام، ثم اخذت تزيد اركانها وتجتمع آدابها حتى بلغت و وصلت الى هيئتها المعروفة اليوم فى الاسلام. وهى بهيئتها هذه فرضت فى اوائل الاسلام. ولها ركنان: ١) قلبى هو روحها، ٢) بدنى هو هيئتها من قيام وركوع وسجود. والصلاة عمادالدين وروح الاسلام. من حافظ عليها حفظ دينه. ومن ضيعها فهو لما سواها اضيع.

§ ٦٣) وكل لفظ عربى ورد فى القران ورود تكليف يحمل على ابسط معانيه. فلا يكون فيه اجمال. ثم قد يكون ان الشارع يبينه بفعله وقوله فيزيد على ابسط معانيه اشياء لم تكن قبل. فيكون فى بادى الرأى كانه مجمل وكان نصا ظاهرا ولم يزل ظاهرا.

§ ٦٤) ذكر الايمان وذكر بعده الصلاة وهى الاخلاص للرحمان، ثم ذكر بعدها الانفاق وهو الاحسان للانسان. وقد جمع القران بين هذه الاصول فى غير موضع. فقال «يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون.» وقال «قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين، وكنا نكذب بيوم الدين.» وقال «ولا يأتون الصلاة الا وهم كسالى ولا ينفقون الا وهم كارهون.» فان مدار النجاة على هذه الاصول الثلاثة. ولا فلاح لمن اخل بها.

§ ٦٥) الانفاق مشتق من تأليف نفق. وله فى لسان العرب معان اصحها الاتلاف والاستهلاك. وهو المراد هاهنا. ويكون بالتمليك والاباحة للغير؛ ويكون بالتناول والصرف فى حاجات نفسه؛ ويكون بالبذل فى الوجوه.
والانفاق فى الاية يدخل فيه الزكاة، والنفقة على الاهل والاقارب، ويدخل فيه كل التبرعات، واداء الحقوق الواجبة العارضة فى الاموال باقتضاء الاحوال.

§ ٦٦) ادخل من التبعيض فان ما ينفقه الانسان جزء قليل وحظ حقير

بالنسبة الى ما رزقه الله الكريم. فان لله نعما على عبده ان عدها لا يستطيع ان يحصيها. «وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها.»

§ ٦٧) وفى التبعيض فوائد اخر: منها: ١) تقديم حق النفس وحقوق الاهل على سائر الحقوق الواجبة فى الاموال. و منها: ٢) تقدير الانفاق على قدر الحاجه. فان حفظ الاموال وادخارها لوقت الحاجة اصل عظيم ضرورى كاصل الانفاق.

§ ٦٨) التوسع فى الانفاق له ثلاثة اوجه: ١) فى الوجوه المحمودة عقلا النافعة فعلا الجميلة وقوعا. والتوسع فى مثل هذه الوجوه مطلوب شرعا. ٢) فى الوجوه المذمومة عقلا الضارة فعلا القبيحة موقعا. ولا شك ان الانفاق فى مثل هذه الوجوه ممنوع شرعا. ٣) التوسع فى الانفاق فى المباحات بالاصالة. كالانفاق فى ما تهواه الانفس من الملاذ و الرفاهيه. فان كان لدفع مفسدة ناجزة او متوقعة او كان فيه غرض صحيح من مصلحة البدن و راحة النفس فالانفاق فيه مطلوب شرعا. و ان لم يكن فيه ذلك و لم يكن فى معصية فالانفاق فيه مباح.

§ ٦٩) الا نفاق فى الاية يدخل فيه كل وجوه الانفاق التى بيناها. و ذكره على سبيل الثناء لان حرية الانسان وكمال اختياره فى كل تصرفاته المعقولة كمال عظيم لايتم الاهلية و الولاية الا به. و هى نعمة الهية عظيمة ذات بركة جسيمة.

§ ٧٠) والذين يومنون بما انزل اليك وما انزل من قبلك وبالاخرة هم يوقنون.

ذكر ان ذلك الكتاب هدى. وذكر فى هذه الاية ان كمال هدى القران هو هدايته الى الايمان بانبياء جميع الاديان. وهذه هداية جليلة قدمنا بيانها فى الفقه (٣٠).

§ ٧١) الايمان «بما انزل اليك وما انزل من قبلك» داخل فى عموم الايمان بالغيب بالمعنى الثانى من معانى الغيب التى قدمناها فى الفقه (٥٩). والنص على الخصوص بعد بيان العموم فى القران الكريم كثير. وله اسباب. منها تعظيم الخصوص والتنويه بذكره. مثل قوله «واذ اخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى.» ومثل

قوله «فاعبدنى واقم الصلاة لذكرى.» وذلك لان الصلاة لذكر الله اجل عبادة. ومنها ان العموم قد يكون فيه اطلاق لا يتبادر منه الشمول. ولهذين الوجهين ذكر الايمان بما انزل الى الانبياء بعد ذكر الايمان بالغيب. فان الايمان بما انزل الى الانبياء اجل نوع من جملة الايمان بالغيب. وهو هدى جليل فى ذكره نصا وخصوصا فائدة.

§ ٧٢) قد يذكر القران الكريم اسما منفردا فيفيد العموم. واذا قرن باسم آخر يختص بغيره. مثل اسم الفقير والمسكين. لما افرد احدهما فى قوله «للفقراء الذين احصروا فى سبيل الله.» وفى قوله «او اطعام عشرة مساكين» دخل فيه الاخر. ولما قرن بينهما فى قوله «انما الصدقات للفقراء والمساكين» كان لكل اسم معنى يدل هو عليه. فيحتمل ان يكون الايمان بما انزل مع الايمان بالغيب من هذا الباب.

§ ٧٣) الانزال له فى القران الكريم وجوه استعمال: ١) هو الذى انزل عليك الكتاب، ٢) انزل من السماء ماء فسالت اودية بقدرها، ٣) يا بنى آدم قد انزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم و ريشا. ٤) خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وانزل لكم من الانعام ثمانية ازواج. ٥) وانزلنا الحديد فيه بأس شديد.

§ ٧٤) ورد النزول فى القران الكريم فى اشياء نعلم قطعا وعيانا انها لا تتكون الا فى الارض ولا تخرج الا منها. كالحديد واللباس والحيوانات. فالنزول والانزال له معان، كل من اراد ان يتوسع فى فقه القران ورغب فى ان يهتدى الى حل مسئلة علمية بدلائلها يجب عليه ان يحيط بها ويتعمق فيها. منها مسئلة نزول الوحى ونزول الكتب من سماء العزة الى الانبياء وعلى الرسل الكرام صلى الله جل جلاله عليهم وعلى آلهم وسلم. والمسئلة ذات شأن عظيم، وفى حلها فائدة جزيلة تهدى عقل المومن الى وجوه اعجاز القران الكريم. ولذا رأينا ان نؤجل بيانها الى خاتمة «فقه القران» ليكون الطالب المستفيد عند سماع بياننا على علم واحاطة وبرهان.

§ ٧٥) الايقان هو العلم بالشىء بعد ان كان صاحبه شاكا يتردد فيه. فلا يقل قائل تيقنت وجودى وتيقنت ان السماء فوقى. لان العلم هاهنا غير مستدرك. ويقال ايضا فى العلم الحادث بعد ان لم يكن،

سواء كان ذلك العلم ضروريا حصل بغير اختياره، او كان نظريا حصل له باستدلاله. ولذلك لا يوصف الله جل جلاله بانه يتيقن الاشياء. لان الحدوث وسبق الشك والغفلة داخل فى مفهوم الايقان. وحيث كان الانسان لا يهتدى الى الايمان بتفاصيل الاخرة الا ببركة الخبر السماوى قال فى العلم بالاخرة يوقنون. ولم يجىء فى العلم بالله جل جلاله الايقان لان العلم به فطرى للانسان.

§ ٧٦) جعل الايقان بالاخرة من تمام الهداية وكمال الاتقاء. فان الانسان خلقه الرحمان على صورته للسعادة الباقية. ولم ينلها الانسان ولا ينالها فى هذه الحياة الفانية. فالسعادة الباقية لا تكون الا فى النشأة الاخرة. وقد قدمناه فى الفقه (١٢)

§ ٧٧) قال اهل الادب ان التقديم يفيد فوائد، منها الحصر. فقوله جل جلاله «وبالاخرة هم يوقنون» يفيد ان المهتدى يوقن بالاخرة، ثم تقديم المعمول على عامله يفيد ان المهتدى لا يوقن بغيرها. وهذا لا يراد هاهنا قطعا فان عدم الايقان بغير الاخرة لا يكون مدحا.

فالتقديم ان افاد الحصر فهاهنا حكمان: ١) ايقان المهتدى بالاخرة. وهذا منطوق الكلام، مقصود. ٢) عدم ايقانه بغير الاخرة. وهذا مفهوم، غير مقصود فى مقام الثناء قطعا.

§ ٧٨) تقديم المسند اليه فى قوله جل جلاله «و بالاخرة هم يوقنون» ان افاد الحصر فهذا الحصر الثانى انما يتسلط على الحكم الاول الذى ثبت بالمنطوق فيفيد ان من لم يهتد لا يوقن بالاخرة ولا يتسلط على الحكم الثانى الذى قلنا انه ثبت بالمفهوم فلا يفيد ان من لم يهتد يوقن بغيرها. لان مثل هذا لا يقصد فى مقام الثناء على المهتدى. ودلالة الكلام لا تتجاوز حدود القصد.

هكذا ينبغى ان يشرح ما ادعاه اهل الادب من افادة التقديم الحصر.

§ ٧٩) شرحنا قول اهل الادب فى المثال. ونريد الان ان نتوسع فى البيان ليهتدى به الطلبة الى فهم نظم القرآن. فنقول اذا جارينا اهل الادب وقلنا ان التقديم يفيد الحصر والاختصاص فالظاهر بادى الرأى ان الانكار فى مثل «قل أ غير الله ابغى ربا» ـ «قل أ غير الله اتخذ

وليا.» ـ«قل ا رايتكم ان اتاكم عذاب الله او اتتكم الساعة ا غير الله تدعون.» ـ«قل ا فغير الله تأمرونى اعبد ايها الجاهلون.» ـ«و قالوا ا بشرا منا واحدا نتبعه.» يتوجه على الاختصاص. و ليس كذلك. و الا لافادت هذه الجمل انكار الاختصاص، ودلت بالمفهوم على جواز التشريك. و معلوم قطعا ان انكار الاختصاص غير مفيد، و التشريك غير مطلوب.

بل اذا دخل الانكار على كلام فيه الاختصاص فقد يفيد انكار الاختصاص، وقد يفيد اختصاص الانكار. و قصد القائل بقرينة المقام هو الذى يعين احد الوجهين. لان دلالة الكلام لا تتجاوز دائرة القصد. والامثلة الخمسة التى تلوناها فى هذا الفقه لافادة اختصاص الانكار.

و النفى فى هذا الحكم مثل الانكار. فاذا قلت انا فعلت هذا افدت الاختصاص. اما اذا نفيت و قلت ما انا فعلت هذا لم يكن كلامك لنفى الاختصاص بل لا يكون الا لاختصاص النفى. فتكون كانك قلت لم افعله بل فعله غيرى.

§ ٨٠) قال امام اهل الادب، امام البلاغة عبدالقاهر رضى الله عنه فى فصل التقديم والتأخير من دلائل الاعجاز «و اعلم ان حال المفعول فى ما ذكرنا كحال الفاعل، اعنى ان تقديم الاسم المفعول يقتضى ان يكون الانكار فى طريق الاحالة و المنع من ان يكون بمثابة ان يوقع به مثل ذلك الفعل. فاذا قلت: ازيدا تضرب؟ كنت قد انكرت ان يكون زيد بمثابة ان يضرب او بموضع ان يجترأ عليه و يستجاز ذلك فيه. و من اجل ذلك قدم غير فى قوله جل جلاله «قل ا غير الله اتخذ وليا.» و قوله عز و جل «قل ارايتكم ان اتاكم عذاب الله او اتتكم الساعة ا غير الله تدعون.» وكان له من الحسن و المزية و من الفخامة ما تعلم انه لا يكون لو اخر، فقيل «قل ا اتخذ غير الله وليا» ـ«قل ا تدعون غير الله». وذلك لانه قد حصل بالتقديم معنى قولك: ايكون غير الله بمثابة ان يتخذ وليا، و بمثابة ان يرضى عاقل من نفسه ان يفعل ذلك، و هل يكون جهل اجهل، و عمى اعمى من ذلك؟ ولا يحصل شىء من ذلك اذا قيل: «ا اتخذ غير الله وليا.» و ذلك لانه حينئذ يتناول الفعل ان يكون فقط، ولا يزيد على ذلك. فاعرفه» انتهى.

§ ٨١) والذى نراه، ولا نرى ان الحق يتعداه، انه لا يقدم فى الكلام الا المقصود. وذلك على حسب قصد القائل، او على وفق حال السامع: فان جهل الفعل وقصد الاخبار عنه قلت «كتب زيد.» وان كان الفعل معلوما وجهل الفاعل قلت «زيد كتب». واذا انكرت الفعل تقول «ا اتخذ غير الله وليا؟» وان انكرت المفعول تقول «ا غير الله اتخذ وليا؟» وهذا على حسب حال المخاطب. واذا علم صاحبك ان زيدا اكرم احدا وسالك عن تعيين المكرم تقول عمرا اكرم زيد واذا سالك سائل عن الدار، هل هى خالية، او فيها احد، تقول فى الدار رجل. تقدمها لان السائل سأل عنها. واذا علم ان فيها احدا وسألك عن تعيينه فان قلت فى الدار زيد اصبت فى الجواب واخطات فى النظم؛ وان قلت رجل فى الدار اصبت فى النظم واخطأت فى الجواب، ولم تفد السائل فائدة، وتركت سواله من غير الجواب. بل يجب بحكم النظم ان تقول زيد فى الدار.

وهذا هو الوجه فى ان النكرة لا تفيد فى الابتداء، وتفيد اذا كانت فاعله. فقول القائل «قام رجل» مفيد، لانه جواب عن قول قائل اى شىء حدث؟ اما قولك «رجل قام» فلا يفيد لانه جواب عن قول قائل علم القيام ولم يعلم القائم فقال من قام؟

وان قال لك قائل اى شىء حدث؟ وقلت له رجل قام فقد اصبت فى الجواب من حيث المعنى وافدته فائدة طلبها هو، الا ان النظم وترتيب اجزاء الجملة خطاء. لان مقصود السائل هو تعيين الحدث، فكان يجب تقديمه وان تقول قام رجل.

وقد يكون ان النكرة تكون مفيدة فى الجواب عن التعيين، فيجوز وقوعها فى الابتداء. والشاهد:

عشية سعدى لو تراءت لراهب بدومة، تجر دونه وحجيج
قلى دينه واهتاج للشوق. انها على الشوق اخوان العزاء هيوج

فكان قائلا قال ومن كان عند راهب بدومة؟ فقال فى الجواب اهل تجارة كانوا عنده وحجاج. فحيث افادت النكرة فى هذا المثال التعيين جاز وقوع «تجر» فى الابتداء.